مكتبة الشباب
إيمانيات

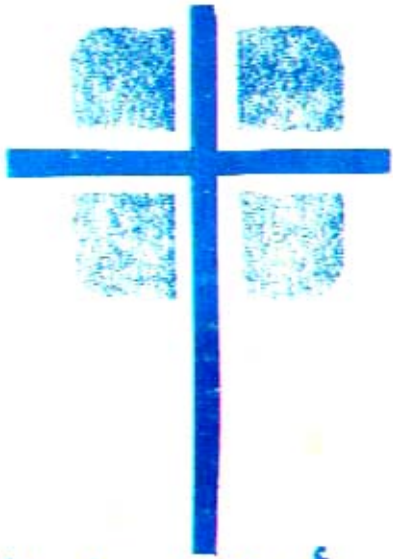

أسئلة حول التجسد

الأنبا موسى
الأسقف العام

بطريركية الأقباط الأرثوذكس
مكتبة الشباب
إيمانيات

أسئلة حول التجسد

الأنبا موسى
الأسقف العام

قداسة البابا شنوده الثالث

مقدمة

هذا الكتيب يجيب ببساطة عن بعض الأسئلة التى كثيراً ما يطرحها الشباب فى اجتماعاتهم الكنسية .

مثلاً : لماذا تجسد السيد المسيح ؟ وهل هذا يتعارض مع طبيعة اللاهوت وقداسته ؟ وما هى الأهداف وراء هذه العقيدة المسيحية الهامة ، سواء من جهة خلاص الإنسان من الخطية ، أو إنكسار سطوة الشيطان عن البشرية ، أو التعرف على إلهنا المحب ، وقد جاءنا فى مذود متواضع حباً بنا .

وهذه الكلمات البسيطة هى إهداء متواضع لوليد المذود ، فى عيد ميلاده المجيد ، ونرجو أن يكون لها فائدة بصلوات قداسة البابا شنودة الثالث وسائر الأحبار الأجلاء .

ونعمة الرب تشملنا جميعاً .

الأنبا موسى
الأسقف العام

[١] لماذا التجسد ؟

سؤال هام هو المسيحية كلها : سؤال طالما أثير فى كل مكان وزمان . سؤال أستدعى أن يسطر الوحى الإلهى على يدى معلمنا يوحنا الحبيب إنجيله ورسائله ، ليوضح لنا حتمية التجسد لخلاص البشرية ، واستحالة الخلاص دون الإيمان بتجسد الله الكلمة . ففى إنجيل معلمنا يوحنا يستهل الوحى حديثه بالتحليق فى آفاق اللاهوت العليا : « فى البدء - أى فى الأصل ، ومنذ الأزل - كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الله الكلمة » (يو ١ : ١) ثم يقول : « والكلمة صار جسداً » (أى اتخذ له جسداً فهو لم يكف عن كونه كلمة الله) ، وحل بيننا ، « ورأينا مجده » (يو ١ : ١٤) .

وفى رسائل معلمنا يوحنا يعتبر الرسول (يوحى من الله طبعاً) أن : « كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه جاء فى الجسد ، هو من الله ، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه جاء فى الجسد فليس من الله . وهذا هو روح ضد المسيح ، الذى سمعتم أنه يأتى والآن هو فى العالم » (١ يو: ٤ : ٢ ، ٣) . ولقد قصد الله أن يبقى يوحنا الحبيب ، الذى طالما اتكأ على صدر السيد المسيح ، حتى نهاية القرن الأول شاهداً أميناً على الفكر اللاهوتى المسيحى السليم كما تسلمه من الرب نفسه . فبينما استشهد بقية الإثنى

عشر وحتى بولس الرسول قبيل سنة ٧٠ ميلادية ، بقى يوحنا الحبيب حتى نهاية القرن الأول تقريباً لتثبيت العقيدة المسيحية السليمة فى مواجهة العديد من الهرطقات مثل :

١ – هرطقة الغنوسيين

الذين تصوروا أن الخلاص يمكن بالمعرفة العقلانية حيث كلمة ***Know = Gnoses*** أى يعرف . وقالوا أن التأمل العقلانى يطهر النفس ويخلصها . وأن السيد المسيح مجرد إنسان حل عليه روح علوى .

وإذا سلمنا بهذا فقدنا كل شىء ، فالخلاص بالعقل يلغى ضرورة التجسد والفداء . وأن يكون المسيح إنساناً فمعنى ذلك أن من فدانا محدود ، ففداؤه ناقص . لهذا رفضت الكنيسة هذه البدعة الخطيرة .

٢ – هرطقة التهوُّد

التى سادت لفترة على حياة بعض اليهود الداخلين إلى المسيحية – حيث لم يستطيعوا التحرر بسرعة من أمجاد العبادة القديمة الشكلية وطقوسها وفرائضها الرمزية . فانبرى لهم معلمنا بولس الرسول ليوضح لهم أمجاد المسيح والمسيحية ، خصوصاً فى رسالته إلى العبرانيين التى مفتاحها هو كلمة « أفضل » . فالسيد المسيح أفضل من الملائكة بما لا يقاس (ص ١ : ٢) ، وأفضل من موسى (ص ٣) ، ومن يشوع (ص ٤) ، ومن هرون (ص ٥) ، ووعده هو الأثبت (ص ٦) ، وذبيحته كانت ترمز إليها تقدمة ملكيصادق (ص ٧) : وكهنوته أفضل من كهنوت هرون (ص ٨) ، وعهده أفضل من العهد القديم (ص ٩) ، وأقداسه أفضل من

أقداس الهيكل (ص ١٠) ، والإيمان به هو سر خلاص الآباء (ص ١١) ، وناموسه أكمل من ناموس موسى (١٢) ، ودمه أفضل من دم الذبائح (ص ١٠ ، ١٣) .

٣ - هرطقة الدوسيتيين

الذين تصوروا جسد السيد المسيح غازياً وخيالياً ، معتقدين أن المادة لا يليق أن تدخل إلى حياة الله . وهى البدعة التى تجددت فيما بعد بواسطة أوطاخى ، وما زالت أصداؤها ترن فى التساؤلات حول التجسد إذ يتساءلون :

(أ) هل التجسد ضد طبيعة الله ؟
(ب) هل التجسد ضد قداسة الله ؟
(ج) هل التجسد ضد قدرة الله ؟
(د) لماذا التجسد ... ألم يكن هناك حل آخر سواه ؟
(هـ) ما مدلول التجسد فى حياتنا ؟

وهذه الأسئلة الهامة يجب أن نستوعب إجابات عليها لعدة أسباب :

أولا : للتشبث من إيماننا الصخرى ، الذى تحطمت على صخرته كل الهرطقات .

ثانياً : لندعم أخوتنا فى المسيح على أساس المعرفة الأساسية اللازمة للخلاص ، إذ يقول الكتاب المقدس : « هلك شعبى من عدم المعرفة » .

ثالثاً : لأن التخلى عن عقيدة التجسد هو بعينه التخلى عن نصيبنا فى

المسيح وفى الملكوت . فما دام الله يستنكف أن يتخذ له جسدا إذن ، فهو لن يسكن فينا ، وهذا هو الهلاك بعينه ، إذ كيف نحيا معه فى الملكوت ونحن لا نشبهه قط .

لهذا قال الرسول : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تى ٣ : ١٦) . فالتجسد إذن هو سر التقوى الإنسانية ، وبالتالى الخلاص الأبدى .

[٢] هل التجسد يتعارض مع طبيعة الله ؟

يتصور البعض أن التجسد يتعارض مع طبيعة الله ، لأن الله روح بسيط خالد ، غير مركب ، ولا مادى ، ولا يصح أن يأخذ صوراً حسية ، مرئية أو مسموعة أو محسوسة . فهل هذا التفكير سليم ؟ وما خطورة هذه الفكرة على البشرية وعلى خلاصها ؟

١ - نظرة خاطئة للمادة :

هذه الفكرة - أن الله لا يتجسد - تخص بين طياتها نظرة خاطئة وخطيرة إلى المادة . أليست المادة بكل صورها إحدى مخلوقات الله ؟! ما الغضاضة إذن فى أن يتخذ الله منها وسيلة يعلن بها عن روحانيته واختفائه وعلوه ، لبشر حسيين وضعفاء ؟! إن فكرة نجاسة المادة ليست سليمة إيمانياً ، وترجع فى أصولها إلى فكر وثنى وهندوسى ، يتصور أن الإنسان روح محبوسة فى جسد ، هو لها مثل سجن قابض . وهم بذلك يعذبون أجسادهم بالمسامير ، و ينهكونها بأصوام مفرطة متطرفة .

هل يخلق الله شيئاً دنساً ؟! أليست أجسادنا من صنع يده ؟ ألا تحوى أجسادنا أدق أسرار الخلق ، وتحمل أعمق الأدلة وأصدقها على وجود الخالق الأعظم ؟ لا يصح أن ننسب إلى أعمال الله النقص أو النقيصة ، الإنسان خلق مقدساً ، وعاش مع الله فى الفردوس بنفس جسده الحالى ، ولكنه اختار أن يستمع إلى غواية الشيطان فسقط فى براثنه . فالخطأ إذن دخل إلى جسده فيما بعد ، وإلى روحه وكيانه كله . أما الإنسان ككل ، وكخليقة الله فى الأساس ، فكان « حسناً جداً » (تك ١ : ٣١) ولعل هذا هو السبب فى أن تتمسك كنائسنا التقليدية باستخدام المادة فى الأسرار المقدسة ، كالماء فى المعمودية ، والزيت فى الميرون ومسحة المرضى ، والخبز والخمر فى التناول ، لتؤكد لنا أن كل شىء خلقه الله هو مقدس ، وأن المشكلة هى فى « سوء الإستخدام » وليس فى المادة نفسها .

٢ – نظرة خاطئة إلى الله :

الله بالفعل روح بسيط قدوس ، مالىء السماء والأرض والتجسد لا يغير من طبيعته . ولا داعى لأن نخشى من التجسد على طبيعته . فالله حينما يتخذ جسداً ، أو يسمعنا صوتاً أو يرينا نوراً لا يكف عن كونه الروح البسيط الخالد القدوس ، مالىء السماء والأرض . إنه لم « يتحول » إلى جسد... حاشا ! إنه فقط « اتخذ جسداً » . فهل فى هذا مشكلة ؟ أليس هو قادر على ذلك ؟

وهناك تشبيهات كثيرة لهذا الأمر: مثلاً الجو كله من حولنا يموج بالإرسال الإذاعى والتلفزيونى ، موجات مرسلة من القاهرة وتنتشر فى

الجو إلى كل بلاد الجمهورية . لا نراها ولا نسمعها بالعين والأذن المجردتين ، ولابد من جهاز يستقبلها ويجسدها . وإذا استقبلناها فى جهاز لدينا ، لا يعنى ذلك أننا إستنفذناها ، أو إحتكرناها فى جهازنا هذا ، فهى لا تكف عن الإنتشار فى أجواء مصر كلها . ومن هذا التشبيه نرى :

١ - أن هناك موجات موجودة ، لا نراها ولا نسمعها دون أن يلغى ذلك أنها موجودة بالفعل . والقياس مع الفارق بالنسبة إلى إلهنا العظيم الموجود فى كل مكان وزمان دون أن نراه بعيون الجسد .

٢ - إن هذه الموجات غير المحسوسة يمكن أن تحس وترى من خلال تجسيدها فى جهاز . والقياس مع الفارق بالنسبة إلى إلهنا العظيم الذى هو روح سامية ، ويمكن أن يتخذ صوراً حسية كالنار أو الصوت أو النور أو الجسم البشرى .

٣ - إن تجسد هذه الموجات فى جهاز ، لا يعنى إنسحابها من الجو ، وانحصارها فى هذا الجهاز . وكذلك فإنه حين اتخذ الله جسد إنسان ، لم يكف عن كونه الإله مالىء السماء والأرض . لهذا قال السيد المسيح له المجد : « ليس أحد صعد إلى السماء ، إلا الذى نزل من السماء إبن الإنسان الذى هو فى السماء » (يو٣ : ١٣) .

وما قلناه عن الموجات الإذاعية نقوله عن الطاقه الكهربائية فهى تتجسد فى مصباح دون أن يحتكرها هذا المصباح ، وهكذا ... إذن فالتجسد لا يتعارض مع طبيعة الله ، إذ أن الله هو الذى خلق المادة مقدسة ، والمادة لن تحده بأى حال إذا ما إتخذها وسيلة يعلن لنا به عن ذاته .

٣] هل التجسد يتعارض مع قداسة الله وقدرته ؟

يتصور البعض أن التجسد ربما يتعارض مع قداسة الله وقدرته ... فيقولون مثلاً : هل من المعقول أن إلهنا العظيم القدوس المتعالى ينزل إلى بطن العذراء و يأخذ جسد إنسان ، و يأكل و يشرب و ينام و يصير كواحد منا ؟! أليس فى ذلك تلويث لقداسة الله ؟!

يرد القديس أثناسيوس الرسولى – أعظم من كتب عن سر التجسد – فيشبه إلهنا العظيم بالشمس ، إذ نلمس فيها شبهاً من خالقها ، فى سموها وطهرها وجبروتها ودفئها ولزومها للحياة ... فلو سطعت الشمس على كومة من القمامة ، أتتدنس الشمس ، أم أنها تطهر هذه الكومة من القمامة دون أن تتلوث هى ؟! كذلك إلهنا العظيم ، حين يسكن فينا ، لن يتدنس بنا ، بل بالحرى يطهرنا بطهره ... نعم يطهرنا دون أن يتدنس !

وهذه الحقيقة لم تستجد بالتجسد الإلهى ، بل بالحرى نحياها كل يوم ... فالله يشرق بنوره و بروحه القدوس ، على البشرية الخاطئة ، منذ الأزمنة السحيقة ، يعمل فيها ، ويهديها ، و يطهرها ، دون أن يتدنس . فماذا استجد إذن ؟ أليس الله فى كل مكان ، وفى كل زمان ، وفى كل إنسان مهما كان خاطئاً ؟ هل يخلو منه مكان ؟ مهما كان هذا المكان دنساً ؟ هل نسينا أن الله غير محدود ، و يستحيل أن تخلو منه أحشاء الإنسان أياً كان ؟ ألسنا به نحيا ونتحرك ونوجد ؟ إذن فالتجسد لا يتعارض مع قداسة

الله الذى إذ يتخذ جسداً يظهر به لا يتدنس بل يقدسه . الجديد هو أن الله إرتأى أن يأخذ مالنا ، ليعطينا ماله . وأنه أخينا فى المسيح ، ليتحد بنا ونتحد به . رضى بالسكنى وسط البشر ، وفى قلوبهم ، ليطهرهم من الخطايا ، ويجدد طبيعتهم الساقطة ، ويحملهم على منكبيه فرحاً . و يعود بهم إلى السماء . إذن التجسد لا يتعارض مع قداسة الله ، وفى نفس الوقت حتمى لقداسة الإنسان ... كيف ؟

• • •

عظيم هو سر التقوى

إن تجسد الله هو بالحقيقة سر التقوى : أى سر التقوى الإنسانية ، و بدونه لا تكون التقوى ولا القداسة . والسبب ببساطة أن طبيعتنا فسدت بعد سقوط آدم وحواء ، وكان لابد من تجديدها وإعادة خلقة الإنسان وصنعه مرة ثانية . فما كان من الممكن أن يتم هذا التجديد إلا بسكنى الله فى قلوبنا وتقديسه لطبيعتنا من الداخل . وهذا سر الأسرار فى المسيحية ، فهى لا تكتفى بتقديم النصائح الخيرة والشرائع الطيبة والأوامر والنواهى . كلا ، هى ببساطة تجعل إلهنا العظيم الذى سكن فى أحشاء العذراء ، يسكن فى أحشائنا جميعاً فيطهرنا ، ويخلصنا ثانية : « إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة » (٢ كو٥ : ١٧) إذن فالتجسد لا يضر بقداسة الله ، ولكنه أساسى لقداستنا نحن ...

• • •

وهل التجسد يتعارض مع قدرة الله ؟

هذا غير معقول ، لسبب بسيط ، أن الله كلى القدرة ، قادر على كل شيء . إن الشيء الوحيد الذى لا يوافق طبيعة الرب أن يعمله هو الخطية لأنها خارجة عن طبيعته ، وهو منزه عن الشر . وخارج هذا الأمر « هل يستحيل على الرب شيء ؟ » (تك ١٨ : ١٤) .

إذا كانت أرواح الصديقين تظهر لنا فى أشكال حسية كما ظهرت أم النور على قباب كنيستنا بالزيتون ، أفهل يكون هذا صعباً على الخالق الحافظ ، القادر على كل شيء ؟ وإن كانت الملائكة تظهر للقديسين فى هيئة حسية ، فهل من الصعب أن يتخذ الله جسداً و يظهر لنا ؟ إن التجسد هو سر خلاص الإنسان ، وهو يتعارض مع طبيعة الله القدوسة القادرة . وهكذا يأتى السؤال :

ولماذا كل هذا ؟ لماذا التجسد من الأساس ؟ أفلم يكن أمام الله حل لمشكلة الإنسان خلاف التجسد ؟ ما أهداف التجسد ؟ هذا ما سنتابعه فى الفصل القادم إن شاء الله .

[٤] ما هى أهداف التجسد ؟

كانت هناك مشاكل خطيرة أساسية وفرعية - أمام البشرية بعد سقوطها ، ولم يكن هناك حل آخر سوى أن يتجسد الله الكلمة ، ليحل هذه المشاكل التى يستحيل أن يحلها غير الله ذاته . وهذه المشاكل هى :

١ – مشكلة التعرف على الله :

فالله روح غير محدود ، والإنسان ملتصق بالمادة ومحدود . فهل يبقى الله عالمياً في سمائه بعيداً عن الإنسان الملتصق بالمادة والحسيات ؟ وهل من المستطاع أن يصعد الإنسان إلى سماء الله رغم محدوديته وضعفه . وهكذا تجسد « كمعلم حكيم » ـ بحسب تعبير القديس أثناسيوس ـ ليصير قريباً منا ومحسوساً لدينا .

٢ – مشكلة موت الإنسان :

وهي المشكلة الجوهرية والأساسية . « أجرة الخطية هي موت » (رو ٦ : ٢٣) . هذا حكم إلهي لا رجعة فيه . ليس لأنه مجرد إدانة غاضبة على الشر ، بل لأن هذا هو المآل الطبيعي للنفس الساقطة ، إنها في الموت تسعى وإلى الموت الأبدي تسير . من يجدد النفس والروح ؟ ومن يقيم الأجساد بعد دفنها وإنحلالها ؟ ومن يعطيها أن تتحول إلى أجساد نورانية ؟ ليس سوى الله قطعاً .

٣ ـ فساد الطبيعة البشرية :

سقط الإنسان ، وتلوثت طبيعته ، وأصابها الفساد . وكان من الممكن طبعاً أن يسامحه الله رغم أنه حذره من العصيان . لكن المشكلة لم تكن في رغبة الله أن يصفح أو لا يصفح ، بل في طبيعة الإنسان ، ومن يجددها له مرة أخرى ، بعد ما أصابها من فساد . وهذا العمل يستحيل على الإنسان الساقط ، وعلى أي نبي أو ملاك ، فالكل مخلوق ومحدود ، وخلق الإنسان من جديد يحتاج إلى الخالق نفسه .

٤ – مشكلة سطوة الشيطان :

لقد أخضع الإنسان نفسه بنفسه تحت سطوة الشيطان ، فقبض عليه وضغط عليه ، وحتى عند موت الأبرار كانوا ينزلون إلى الهاوية ، وإذا كان الفردوس مغلقاً ، وكان إبليس يقبض على نفوسهم هناك . ترى ، من يستطيع أن يطلق البشرية من قبضة إبليس ، سواء الأحياء على الأرض ، أو الأرواح البارة التى فى الجحيم ؟ من يستطيع أن يقتحم هذا المجهول ، ليفك أسر المسبيين ؟ يستحيل أن يفعل هذا سوى الله نفسه .

فلندرس هذه الأهداف بشيء من التفصيل .

[٥] بالتجسد ... عرفنا الله

لا شك أن هناك تناقض جذرى بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان . فالله روح بسيط خالد يملأ كل مكان سرمدى (أزلى أبدى) غير محدود ولا مدرك ولا متغير بينما الإنسان غير ذلك تماماً . إنه مخلوق على صورة الله فى الحرية والبر والعقل و يتمتع بعنصر الروح التى تفكر فيما وراء المادة والطبيعة ... لكنه محدود وله بداية .

وهذا التسامى الإلهى يجعل الله فوق إدراك البشر من جهة العقل أو الحواس ، ولهذا تميل كنيستنا القبطية ، واللاهوت الشرقى دوماً إلى إستخدام الإسلوب السلبى فى التعبير عن إلهنا العظيم أى الأسلوب الذى ينفى عن الله ما لا يتناسب مع صفاته أكثر مما يورد من صفات إيجابية عنه تعالى . فنقول فى القداس الغريغورى مثلاً . « الذى لا ينطق به ، غير

المرئى ، غير المحوى ، غير المبتدىء ، الأبدى ، غير الزمنى الذى لا يحد ، غير المفحوص ، غير المستحيل ، خالق الكل ، مخلص الجميع » . وهنا نلاحظ النفى المتكرر ، لما لا يتناسب مع الله ، وإثبات لبعض الصفات القليلة التى ينفرد بها الله كالأبدى ، الخالق ، المخلص .

من هنا لزم التجسد :

لأنه إذا كان الله متساميا فوق الإدراك البشرى ، بحيث أن من يدخل إليه ما يسميه اللاهوتيون « الضباب الإلهى » (**Divine Darkness**) ... لأن نور الله يبهر العين فتبدو عمياء لا تراه . نقول ، إذا كان الله متساميا فوق الطبيعة البشرية إلى هذه الدرجة غير المحدودة ، فهل تبقى الأمور هكذا ؟ كيف يتعرف إليه الإنسان الضعيف الحسى ؟ كيف يقترب إليه ؟ وكيف يتصاعد إلى عرشه الأعلى وهو تراب كثيف ورماد خاطىء ؟ إنها بالحقيقة مشكلة هامة !

محاولات يائسة :

ولقد حاول الكثيرون منذ سقوط آدم أن يقتربوا إلى الله ، فارتدوا أمام القول الرهيب : « الإنسان لا يرانى و يعيش » (خر ٣٣ : ٢٠) . ولما حاول موسى أن يرى « مجد » الرب ، خباه الرب فى مغارة ، وستر عليه بيده ، وأجاز « جودته » أمامه . ولما إكتشف منوح أبو شمشون أنه رأى الرب فى رؤيا صرخ قائلاً : « نموت لأننا رأينا الله » (قض ١٣ : ٢٢) . وهكذا عاشت البشرية أجيالاً تلهث وراء هذه الرؤيا دون جدوى . وكان الله يتكلم إلى البشر قديماً عن طريق أنبيائه الذين يلهمهم بكلامه

و يتراءى لهم فى صور محسوسة للحظات : كامتلاء الخيمة بالضباب ، أو الصوت القادم من العليقة المشتعلة ، أو الرؤى والأحلام . وهكذا بقى الله عالياً فى سمائه ، والإنسان هابطاً فى طين الأرض وظلمة الحسيات .

وجاء الحل :

وذلك حين تجسد الكلمة الإلهية فى صورة إنسان كقول الرسول « الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى إبنه ، الذى جعله وارثاً لكل شىء ، الذى به أيضاً عمل العالمين » (عب ١ : ١ ، ٢) . ولنلاحظ هنا الفرق بين حرفى الجر « ب » و « فى » . فالله كان يكلمنا **بالأنبياء** وأخيراً كلمنا **فى إبنه** . أى أنه أعلن نفسه لنا جسدياً فى صورة إنسان مثلنا فى كل شىء ما خلا الخطية . وهكذا صار الإله غير المرئى مرئياً ، وغير المحسوس محسوساً ، دون أن يكف عن كونه الإله الروح المالىء كل مكان وزمان ، والمتعالى على كل الأذهان .

المعلم الصالح :

و يشبه القديس أثناسيوس إلهنا فى تجسده بالمعلم الصالح ، **الذى لا ينتظر من تلاميذه أن يرتفعوا إلى مستواه** ، بل ينزل **هو إلى مستواهم** ليعرفهم مقاصده وتعاليمه . وهذا هو الوضع المنطق والمقبول . **أما أن يبقى** الله فى علياء سمائه ، و ينتظرنا حتى نتصاعد إليه رغم ضعفنا وتُرابيتنا ، **فهذا هو عين المستحيل** .

* * *

من هنا تجسد الرب ليقترب إلينا نحن الضعفاء، وليتحدث إلينا باللغة التي نفهمها، حتى يعلن لنا حبه، و يعرفنا بشخصه، و يقودنا بنعمته إلى سمائه.

[٦] بالتجسد ... تم الفداء

لم يهدف إلهنا العظيم بتجسده أن نتعرف عليه وحسب، بل قصد أن يفدينا من موت الخطية و يعتقنا من سلطانها الخطير. فكيف كان ذلك ؟

سقط أبونا آدم، وكانت سقطته غير محدودة حيث أنها كانت موجهة إلى إلهنا غير المحدود. كما أنها أورثت الجنس البشرى طبيعة فاسدة، فلم ينتج عنها سوى المزيد من الخطايا فى الأجيال المتعاقبة وهكذا صارت خطية الجنس البشرى غير محدودة من حيث نوعها وكمها.

ما الحل إذن ؟

هناك أكثر من احتمال :

١ - ينفذ الله كلمته ويميت الإنسان، و ينتهى كل شىء لكن هذا معناه هزيمة الله أمام الشيطان الذى أفسد له عمل يديه. ما الحكمة من خلق الإنسان إذن، مادام سيسقط فى الموت منذ البداية ؟

٢ - يسامح الله الإنسان، فهو محب ورحوم. ولكن هذا يعنى أن تتجلى إحدى كمالات الله (المحبة) بينما تتضاءل صفة أخرى (العدل). وهذا بالإضافة إلى أن المشكلة لا تكمن فقط فى مسامحة الإنسان الساقط، ولكن فى مداواة آثار السقوط، أى فساد الطبيعة الإنسانية. ما قيمة أن

يسامحنى الله عما سلف ، دون أن يجدد و يقدس طبيعتى حتى تنتصر على الخطيئة وتصير فى شركة مع طبيعته القدوسة ؟

٣ - إذن ، فليرسل الله فادٍ لفداء الإنسان ، فمن جهة ينفذ فيه حكم الموت ، ومن جهة أخرى تنال البشرية الغفران . ولكن ما المطلوب من هذا الفادى ؟

مواصفات الفادى المطلوب :

إن مهمة الفادى خطيرة ، فهو لابد أن تتوافر فيه صفات معينة مثل :

١ - يجب أن يكون الفادى **إنساناً** ، فالإنسان هو الذى سقط ، والفادى سيمثله فى حل القصاص .

٢ - ويجب أن **يموت** هذا الفادى ، لأن « أجرة الخطية هى موت » (رو ٦ : ٢٣) ، ولأن حكم الله على آدم وحواء كان هو الموت « موتاً تموتا » (تك ٢ : ١٨) .

٣ - ولكن هذا الفادى يجب أن يكون **غير محدود** ، ليستطيع وفاء الدين غير المحدود على الإنسان ، وذلك - كما ذكرنا - لأن الخطية كانت موجهة ضد الله غير المحدود ، ولأن البشرية كلها ساهمت بنصيب فى هذا الدين فصار ضخماً جداً .

٤ - كذلك يجب أن يكون الفادى **بلا خطية** ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، إذ كيف يفدينا وهو خاطىء يحتاج لمن يفديه ؟

٥ - ويجب أن يكون **خالقاً** لأن المطلوب منه ليس فقط الغفران ، ولكن تجديد خلقة الإنسان ، بالروح القدس .

وأمام هذه المواصفات كان لابد من التجسد ، لماذا ؟

التجسد هوالحل :

لأن أقنوم الكلمة ، الحكمة الإلهية ، حينما إتخذ له جسداً وحل بيننا صار قادراً أن يفدى الإنسان ، محققاً كل المواصفات المطلوبة :

أ – فيناسوته : هو إنسان ، يموت .

ب – و بلاهوته : هو غير محدود ، بلا خطية ، خالق .

وهكذا إستطاع رب المجد أن يحل مشكلة فساد الطبيعة البشرية ، بأن « أخذ الذى لنا وأعطانا الذى له » . أى أنه حمل خطايانا ، و برر نا ببره كما أنه أخذ جسدنا بلا خطية ، وأعطانا شركة طبيعته الإلهية .

هل هناك حل آخر ؟ مستحيل ! .

* * *

[٧] بالتجسد ... سقط الشيطان

الشيطان كائن حى ، وشخصية حقيقية . وهو فى الأساس رئيس ملائكة سقط مع طغمة فى فترة الإختبار التى كانت لهذه المخلوقات الروحية . وقصة سقوطه مدونة فى الكتاب المقدس فى مواضع عديدة أهمها :

أشعياء ١٤ : « كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح . كيف قطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم . وأنت قلت فى قلبك أصعد إلى

السموات ، أرفع كرسى فوق الكواكب ، أصير مثل العلى ، لكنك إنحدرت إلى الهاوية ، إلى أسافل الجُب » (أش ١٤ : ١٢ - ١٥) .

رؤيا ١٢ : « وحدثت حرب فى السماء ميخائيل وملائكته ، حاربوا التنين ، وحارب التنين وملائكته ، ولم يقووا ، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك فى السماء . فطرح التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إبليس والشيطان ، الذى يضل العالم كله ، طرح إلى الأرض ، وطرحت معه ملائكته » (رؤ١٢ : ٧-١٧) .

ولكن ... لماذا سمح الله بسقوط الشيطان ؟ أو بالحرى مادام الله كان يعرف أن الشيطان سيسقط فلماذا خلقه من الأساس ؟ وبعد أن سقط لماذا تركه وهو يعلم أنه سيُسقط الإنسان ؟

لماذا الشيطان ؟

الشيطان هو المفتاح الوحيد لموضوع حرية الإختيار لدى الإنسان . الله لا يريد مخلوقات تابعة ، ولكنه يريد مخلوقات حرة . لذلك أعطى فترة إختبار للملائكة حين خلقهم ، تاركاً لهم حرية الإختيار ، بين أن يكونوا معه ، أو أن يرفضوا ذلك . وهكذا إختار الشيطان أن يستقل عن الله ، ونسى المسكين أن نوره مستمد من النور الإلهى . وإنه يستحيل أن ينير من ذاته . فانقطعت فرصة إنارته وصار كتلة من الظلام ومن هنا إستحالت توبته فهو مسئول عن تصرفه مسئولية كاملة ، لم يتقدم أحد ليغريه . كما أنه صار ظلاماً كله ، فليس هناك أدنى أمل فى توبته أو خلاصه .

أما الإنسان ، فكانت أمامه أيضاً حرية الإختيار، أن يحيا لله أو للشيطان ، حسبما أراد . فإذا اختار أن يحيا لله سيكون ذلك بمحض حريته ، وليس بقهر من الخالق . إنها الحرية التي خلقنا الله عليها ، ويجب لنا أن نمارسها . وشكراً لله أن الذي دفع ثمن هذه الحرية ، وديون ذلك السقوط الإنساني هو الله نفسه ، فهو لم يسمح بسقوطنا على يد إبليس ثم يتركنا لنخلّص أنفسنا بأنفسنا ، بل بالعكس ، رأى أننا في ضعفنا ثم إغراؤنا ، فنزل لفدائنا ، وسحق الشيطان .

كيف سقط الشيطان ؟

على عود الصليب ، ظن الشيطان أنه انتهى من السيد المسيح . فلقد كان متحيراً فيه ، وكان الرب يخفي لاهوته عنه . مرة يظهر له صفة من صفات اللاهوت إذ يجده يخلق عيناً لأعمى ، و يقيم ميتاً بعد أن أنتن ، و يغفر الخطايا ، ويجدد القلوب ، ومرة أخرى يظهر له صفة من صفات الناسوت فيجوع و يعطش و ينام . وكان الرب يفعل كل ذلك « تدبيرياً » لكي يكمل الشيطان خطته و يؤلب اليهود والرومان عليه ، فيقتلونه بالصليب . وكان الرب يهدف إلى هذه الغاية ، لأنه على الصليب إنفصلت نفسه الإنسانية عن جسده الإنساني ، غير أن لاهوته كان متحداً بكليهما . فالرب شابهنا في ناسوت كامل : جسد + نفس + روح إنسانية . ولما نزلت النفس الإنسانية إلى الجحيم كأنفس القديسين السابقين على الفداء (لأن الفردوس كان مغلقاً) ، ظن الشيطان أنه سيقبض عليه كبقية أرواح القديسين ولكنه صعق إذ وجد هذه النفس متحدة باللاهوت . وانسحق الشيطان أمام السيد المسيح ، الذي أحدث ثورة في

الجحيم بين الأنفس المنتظرة لفدائه ، وخرج بها غالباً ، وفتح لها باب الفردوس ، وأودعها فيه بفرحة عارمة .

وهكذا تمت الكلمة التي قالها الرب : « رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء » ، « رئيس هذا العالم آت ، وليس له فيّ شيء » (يو ١٠ : ١٨ ، يو ١٤ : ٣٠) . وهكذا صار لنا إمكانية النصرة عليه : « إله السلام سيسحق الشيطان تحت أقدامكم سريعاً » (رو١٦ : ٢٠) .

فلم يعد لنا حجة أن نجعل من الشيطان الشماعة التي نعلق عليها خطايانا الآن ، فهو يعرض دون أن يفرض ، وقد فقد سلطانه علينا إلى الأبد ، تمهيداً ليوم سيعذبه فيه الله إلى ما لا نهاية ، لأنه إختار ذلك بنفسه وبكبريائه المرة .

ونحن الآن في المسك الألفي نتمتع بنصرة عليه ، إذ نقوم مع الرب من قبور الخطية « إستيقظ أيها النائم وقم من بين الأموات ، فيضيء لك المسيح » (أف ٥ : ١٤) ، « أقامنا معه » (أف ٢ : ٦) . وذلك تمهيداً للقيامة الثانية قيامة الأجساد ، لنحيا مع الرب إلى الأبد .

* * *

[٨] بالتجسد ... إنتهت مشكلة الشر والألم

لاحظنا مما سبق أن التجسد كان طريقاً إلى أهداف عديدة منها :

١ – التعرف على الله الروح ، إذ اتخذ جسداً ، فصار من الممكن أن نتعرف عليه ، وأن نسمع صوته .

٢ – إتمام الفداء ، فبالتجسد حصلنا على الفادى المناسب ، القادر أن يموت عنا بناسوته ، وأن يقوم لأجلنا بلاهوته .

٣ – سقوط الشيطان ، فقد سحقه الرب بالصليب ، وسبى سبایاه داخلاً بهم فى ظفر إلى الفردوس .

يبقى أن ندرك أن التجسد أنهى مشكلتى الشر والألم من حياة البشرية .

* * *

مشكلة الشر :

صار الإنسان – بسبب السقوط – يعانى أمرين :

١ – الطبيعة التى فسدت بالخطيئة .

٢ – الحكم الذى صدر ضده بالسقوط .

لكن الرب بتجسده حل هاتين المشكلتين ، إذ مات عنا على الصليب ، فانتهى الحكم الذى كان علينا ، واتحد بجسدنا ، فأعاد خلقتنا

وطهرنا من فسادها . وهكذا - بالمعمودية - دُفنا مع المسيح ، ثم قمنا معه فى حياة جديدة . أو كما يقول القديس أثناسيوس الرسولى ، صرنا كقشة سهلة الحريق ، ولكنها إذ أحيطت بمادة الإسبتوس غير القابلة للإشتعال ، صارت فى مأمن من حريق الدينونة . ومن هنا صار الإتحاد بالله ممكناً ، من خلال الحياة اليومية معه ، والتناول المستمر من جسده ودمه الأقدسين .

و يشبه القديس أثناسيوس عملية تجديد خلقة الإنسان بملك له إبن وحيد . وإذ أوشك الإبن على السفر طلب الملك من فنان عظيم أن يرسم له صورة إبنه الحبيب ، فخرجت الصورة بديعة جداً . وسافر الإبن ، وحدث للصورة ما أفسدها . ولما أراد الأب استعادة صورة إبنه طلب الفنان عودة الإبن من الخارج ليرسم الصورة من جديد . وبالفعل عاد الإبن مرة ثانية ، وأعاد الرسام الصورة إلى أصلها دون أن يمزق اللوحة التى فسدت حيث أنها كانت تحمل فى الأصل صورة الإبن و يقول القديس أثناسيوس أن هذا ما فعله الله معنا ، جاء إلينا ، وأعاد رسم الصورة على نفس طبيعتنا الساقطة دون أن يفنى هذه الخلقة الأولى التى خلق يوماً ما صورته الإلهية .

وهكذا أعيدت خلقة الإنسان ، وصار من الممكن لا أن تغفر له خطاياه فحسب ، بل أن يتجدد حسب صورة خالقه « إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ، ولبستم الجديد الذى يتجدد لمعرفة حسب صورة خالقه » (كو ٣ : ٩ ، ١٠) .

وقد شبه الله ذلك فى العهد القديم بالفخارى الذى صنع من الطينة وماء، وإذ لم يكن كما يريد، أعاد صنعه ثانية بعد أن فسد. وقال الرب «هوذا كالطين بيد الفخارى، هكذا أنتم بيدى» (أرميا ١٨: ١-١٠). لذلك فالمسيحية هى الدين الوحيد الذى يتحدث عن إعادة خلقة الإنسان وتجديد طبيعته، وهذا عمل لا يقدر عليه سوى الخالق.

* * *

مشكلة الألم:

وكما عالج الرب بتجسده مشكلة الشر، عالج مشكلة الألم. فالألم كان فى الماضى عقاباً على الخطيئة، ولكننا إذ تبررنا بالمسيح، صار الألم شركة معه، وهبة منه. «لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أن تتألموا لأجله» (فى ١: ٢٩). ولذلك فالرسل «ذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل إسمه» (أع ٥: ٤١).

نعم، فالألم لم يعد عقوبة، لأن السيد نفسه تألم دون خطيئة، وكانت آلامه آلاماً فدائية، إذ «حمل خطايانا فى جسمه على الخشبة» (١ بط ٢: ٢٤). وصارت آلامنا كلها - فيما عدا الآلام الناتجة عن ارتكاب خطايا - آلاماً فيها تعزية وتنقية وتكميل وبنيان وشركة وفطام عن الأرضيات.

لذلك يقول الرسول بولس: «أكمل نقائص شدائد المسيح فى جسمى لأجل جسده الذى هو الكنيسة» (كو ١: ٢٤). نعم، فالكنيسة هى جسد المسيح، الرب هو الرأس والمؤمنون هم الأعضاء. وكما دفع الرأس

نصيبه من الآلام ، وجب على الأعضاء أن تدفع نصيبها منها فالألم إذن - المرض والخسارة المادية والأدبية وآلام الموت والكوارث الطبيعية وغير ذلك - لم يعد عقوبة الخطيئة ، بل شركة مع المصلوب .

وطوبى للنفس التي تدرك غاية الألم وبركاته فلا تضجر منه ، بل بالحرى ترضى به ، وتشكر عليه ، فهي تدرك أن الألم :

١ - ينقينا من شوائب الخطيئة والبر الذاتي .

٢ - يزكينا أمام الله والناس إذ نحتمل بشكر .

٣ - و يقينا من ضربات الكبرياء كشوكة بولس .

٤ - و يفطمنا عن الأرضيات لنطلب أورشليم السمائية ، ونستعد لحياتنا الأبدية .

وهكذا صار التجسد حلاً جذرياً لكل مشاكل الإنسان ، ومعبراً وحيداً للخلاص منها ، والإتحاد بالله ، والتطلع للخلود .

* * *

[٩] تشبيهات القديس أثناسيوس عن التجسد

وخير ما ننهى به هذه الدراسة المبسطة ، التشبيهات التى أوردها القديس أثناسيوس الرسول عن التجسد الإلهى ، ليشرح بها لنا أبعاد هذه العقيدة الهامة . وهذه بعضها :

١ ـ تشبيه الملك :

لو تصورنا أن ملكاً إختار مدينة فى مملكته وسكن فيها . إذن ، فسوف تكون هذه المدينة هى العاصمة . وستكون لها كرامة خاصة . كما أن سكنى الملك فى أحد بيوتها هو سكنى فى كل البيوت .

ولو فرضنا أن سكان المدينة أهملوا فى حراستها ، فبدأ الأعداء يطغون الأسوار ويهاجمون الأهالى ، هل سيسكت الملك على ذلك قائلاً هم المسئولون ؟ أم أنه سيهب لنجدتهم دفاعاً عن هيبة المملكة ، ومعتبراً أن الإساءة لأحد رعاياه إساءة له شخصياً ؟

هذا بالضبط ما حدث فى التجسد... فالله حين سكن فى أحشاء العذراء مريم إنما رضى بذلك أن يسكن فى كل البشر ، وهذا شىء طبيعى لأن الله فى كل مكان ولا يحده شىء .

ومع أن البشر أهملوا فى حراسة طبيعتهم البشرية وسمحوا للشيطان بأن يطغاها ، إلا أن ذلك لم يجعل الله ينخلى عنا بل بالحرى هب لنجدتنا ، وجاء إلينا ليخلصنا .

° ° °

٢ ـ تشبيه الفنـــان :

لو تصورنا أباً له إبن وحيد ، وهذا الإبن سيسافر طويلاً . إستدعى الأب فناناً مبدعاً وطلب منه أن يرسم لإبنه صورة جميلة يراه فيها أثناء غيبته . وبالفعل تم ذلك . وبعد فترة سقطت على هذه الصورة أشياء شوهتها تماماً . فماذا يفعل الأب ، والإبن قد سافر فعلاً ؟ ... إستدعى الفنان طالباً منه تجديد الصورة ، ولكن الفنان طلب عودة الإبن من الخارج ليعيد الرسم . ولما عاد الإبن أراد الفنان أن يمزق الصورة المشوهة و يرسم صورة جديدة . لكن الأب اعترض بشدة قائلاً له : جدد لى الصورة القديمة ولا تمزقها لأنها كانت تحمل لى كل يوم صورة إبنى الحبيب « وهكذا أعاد الفنان اللهم رسم الصورة فى نفس الصفحة القديمة » .

وما معنى ذلك ؟

إن الله قد خلقنا على صورته ومثاله . فلما شوهنا هذه الصورة نزل بنفسه وأعاد الصورة إلى أصلها دون أن يفنى البشرية ويخلق بشرية جديدة ... فيا لعظم حكمة الله ومحبته لنا !!

* * *

٣ ـ تشبيه المعـــلم :

إن المعلم الصالح والكبير لا ينتظر أن يتصاعد الصغير إليه ، بل يتنازل هو إليه ، وهكذا يلتقى به و يشرح له ما يريد . لهذا نزل الرب من السماء إذ مستحيل أن نصعد إلى السماء بدونه .

* * *

٤ ـ تشبيه القشة والإسبستوس :

شبه القديس أثناسيوس الرسول الطبيعة البشرية بقشة قابلة للحريق (بالخطية والدينونة) . لكننا إذا غمسنا هذه القشة بمادة الإسبستوس الغير قابلة للإشتعال حافظنا عليها من هذه النيران . وهكذا الإنسان حين «يلبس الرب يسوع» يتقى نار الدينونة وهلاك الأبدية ، ويحفظه الرب لأبدية سعيدة معه .

° ° °

وهكذا عبر القديس أثناسيوس عن أهداف التجسد من خلال هذه التشبيهات الجميلة «شكراً لله على عطيته التى لا يعبر عنها» (كورنثوس الثانية ٩ : ١٥) .

سلسلة ...

مكتبة الشباب

+ تصدرها خدمة الشباب بالبطريركية .

+ تعالج موضوعات روحية وكنسية وكتابية .

+ صدر منها حتى الآن :

١ – كيف نخدم الشباب ؟

٢ – الشباب وحياة الطهارة ؟

٣ – مدخل إلى الأناجيل والأعمال .

٤ – مدخل إلى رسائل الكاثوليكون .

٥ – مدخل إلى سفر الرؤيا .

٦ – الحب غير المحدود .

٧ – أسئلة حول التجسد .

+ تطلب من : مكتبة الشباب بالكاتدرائية بالعباسية مصر ومن سائر المكتبات المسيحية .

يطلب من :

- مكتبة الشباب - بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة .
- مكتبة مارمرقس بمطرانية بنى سويف .
- سائر المكتبات المسيحية .